

وهو مرسوم يشف عن روح العصر ، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبيين ، وإليك نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ، لا إكراه في الدين . . . مضى أسس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ؛ معانير المسلمين نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . . . من شهد الشهادتين . . . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه

الاخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرّم عليها ما حرّم ، من كل محرّم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ؛ والفساد والافساد من العباد يستقبح ؛ بطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، وبمرض عما انقضى فلا يذكر ؛ ولا يقبل على ما صر وأدر من أجزاء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام الله عليهم أجمعين ، مهديهم بالله ، وقائمهم بأمر الله ، ومنصورهم بالله ومعزهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية والنصورية ؛ وأحوال القبروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية ؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ؛ ولا يمرض أهل الرؤية فيما هم عليه ساعون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفون ؛ يخمس في التكبير على الجنائر الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل للؤذون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذون ؛ لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتمسب على التواصف فيهم بما يوصف ، وانخالف فيهم بما خلف ؛ لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميماده عنده كتابه ، وعليه حساب ؛ ليكون عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ؛ لا يستعمل مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده ،

من جميع ما نصه أمير المؤمنين في سجله هذا ، وبمده قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبشكم بما كنتم تعملون » . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ كتب في رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة » (١)

(١) نقلنا نس الرسوم عن ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ — والظاهر أن هناك خطأ مادياً في التاريخ ، وأن صحته هي « ثمان وتسعين » لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور الرسوم ، وصدور الأمر بجمعه سنة ٩٧ ، راجع الفرزى ج ٤ ص ٧١

٥- الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضهاد النصرى واليهود ، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضاً ، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة . وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم في مصر شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية ، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية ؛ وقد حذا الحاكم في ذلك حذو أبيه العزيز وجده المزم ، وعمل لبث الدعوة الفاطمية في قوة وجرأة ، ولكن في نوع من التناقض أيضاً ؛ ففي سنة ٣٩٥ هـ ، أمر بسب السلف (أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية . . . الخ) ، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد والقابر والحوانيت ، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه في سائر الأماكن . وفي نفس العام أنشأ الحاكم دار الحكمة لتنظيم الدعوة وبثها بطريقة منظمة ؛ وسنعود للكلام عنها في فصل خاص . وكان سب السلف مظاهره شيعية عملية ، ولكن مخفية مبتذلة ؛ فلم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجترار الثير ، وألغى الرسوم (سنة ٩٧) وشدد في هذا المنع فيما بعد ، وعوقب المخالفون بالضرب والتنشير (١) . وفي سنة ٣٩٨ هـ صدر مرسوم يقرر بمض الأحكام الدينية ويفسرها ، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها ؛

(١) الفرزى — ج ٤ ص ٧٣

وإذا ابتلى فليضم إلى نفسه من هو أشدّ بلاء منه ؛ ليكون همّه أحد همّين ، فيذهب الأثقل بالأخفّ

إن الانسان ونفسه في هذه الحياة كالذي أعطى طفلاً زرقاً طليشاً عارماً متمرداً ، ليؤدبه ويحكم تربيته وتوقه ، فيثبت بذلك أنه أستاذ ، فيعطى أجر صبره وعمله ، ثم يضيّق الأستاذ بالطفل ساعة فيقتله . أ كذلك التأديب والتربية ؟

محمد عبد الله عنان

(لهذا المجلس بقية)

مظاهر الانكماش والبساطة ، وكان خلافاً للطفاة يعف عن مال الرعية ، فاذا بدا له أن يصادر مال كبير مفضوب عليه فإنه يضيفه إلى الأموال العامة ، وقد أنشأ لذلك ديواناً خاصاً يسمى بالديوان « المفرد » تضاف إليه أموال من يقضى عليهم بالصادرة ؛ وقد رد هذه الأموال إلى أصحابها متى زالت أسباب السخط عليهم ؛ وقد تبقى نهائياً وتستعمل في الشئون العامة (١)

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل ، وكان يسرف في العطاء أحياناً إلى حدود تهدم مالية الخزينة ، وتثير اعتراض الوزراء ورجال الدولة ؛ ومما يؤثر في ذلك أن أمين الأمان الحسين ابن طاهر الوزان اعترض ذات مرة على إسراف الحاكم في الصلات والعطايا ، وبلغ الحاكم اعتراضه وتوقفه في تنفيذ الأوامر ، فبعث إليه بخطه في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٤٠٣ بهذه الرقعة المؤثرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله ومستحقه : أصبحت لأرجو ولا أتق إلا الله وحده ، ودينى الاخلاص والعدل ما عندكم ينفذ ، وما عند الله باق ، والمال مال الله عز وجل ، واخلق عيال الله ، ونحن أمناءه في الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام » (٢) وكان ذوو الحاجات يقصدون الحاكم أثناء طوافه ، سواء بالنهار أو الليل ، ويرفمون إليه حاجاتهم وطلباتهم ، فيقضى فيها بنفسه ، ويقضى حاجات الكثيرين ، ويشتر العطايا على المحتاجين (٣) . بيد أنه لم يكن يخلو في ذلك من الشذوذ أيضاً فيدخل أحياناً بأقل الصلات (٤)

وكان الحاكم يميل إلى التخفيف عن الشعب في أمر الضرائب فكان يرفع عنه أحياناً بعض المكوس حين الأزمات العامة ؛ وقد يعينها طبقاً للظروف والأحوال ؛ ولما فتحت دار الحكمة كان من رسومها أن يؤدي « المؤمنون » مال النجوى ، وهو رسم اختياري ينفق من دخله على النقباء ، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشئون الدينية تحديداً واضحاً ؛ فقد نسبت إليه في هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة ؛ وقيل إنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الدينية الجوهرية كالصلاة والزكاة والصوم ، بل قيل إنه شرع في إلغائها ، غير أنه ليس ثمة ما يدل على أنه ذهب إلى هذا الحد ، على الأقل في الفترة التي نتحدث عنها ، وإن لم يكن ثمة شك في أنه عدل بعض الأحكام والرسوم تديلاً يجعلها أقرب إلى نسبة الذهبية . وأما عن عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن يقطع فيها برأى حاسم ، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة ، وإنما حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية ، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه ؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طوراً بعد آخر ، بالنصب الديني والاعتراف المذهبي ، واليقين والتشكك ، والاعمان والالحاد ؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم ، كان في أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الفلو والاعتراف ، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الاسلام ، وإلى الدعوة بالوهيته وقيامه . ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم والحلاد وإيمانه للصلاة ، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم شيء منه لقتل لوقته (١) . بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التي انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وعن تصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنرى بعد

— ٨ —

ولنتقل إلى ناحية أخرى من تصرفات الحاكم هي تصرفاته المالية . كان الحاكم باجماع الرواية ، جواداً وافر البذل ، وكان كثير الزهد في المال ؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت في عهدها القصير من الأموال والثروات الطائلة من الجواهر والتحف الباذخة ما يفيض في وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش وبهبر ، وتكدر لدى الحاكم من الأموال والتحف ما يجعل قدره ووصفه (٢) . ولكن الحاكم لم يفرق في تلك المظاهر الفخمة التي كانت تنشرها الخلافة الفاطمية من حولها ؛ وكان يؤثر بطبيعته

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠

(٢) راجع القرظي فيما نقله عن السبكي وغيره من مؤرخي الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبعثاتها (ج ٢ ص ٢٥١ - ٢٨١) وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج ٤ ص ١٩٢)

(١) القرظي ج ٣ ص ٢٣

(٢) الإشارة إلى من نال الوزارة من ٣٩ وبنسب ابن خلدون هنا الشعر إلى الخليفة الأمر بأحكام الله (ج ٤ ص ٧١)
(٣) النجوم الزاهرة عن ابن الصابي (ج ٤ ص ١٨٠)
(٤) ابن قزويني (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

وكانت هذه النزعة إلى البساطة تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية . وكان الحاكم يركب في المدينة في أبسط المظاهر الديمقراطية التي تذكرنا بديمقراطية المسلمين الأوائل ؛ فيرتدى ثياباً بسيطة ، أو يرتدى دارعة صوف بيضاء ويتمتع بفوطة وفي رجله حذاء عربي ساذج ، وقد يركب فرساً بلا زينة أو سحراراً ، وفي أحيان قليلة يركب محفة يحماها الرجال ، وعشارية تشق به النيل ؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضخمة ، لا يصحبه من الحشم سوى بضعة من الركابية ؛ وكان كثير الاتصال بالشعب فكان القصر مفتوح الأبواب للتظلمين وذوى الحاجات ؛ وكان يستمع إليهم أثناء طوافه وينظر في مطالبهم كما قدمنا

وأما عن حياة الحاكم الخاصة فلم تصلنا سوى لمحات ضئيلة ؛ ولكن لا ريب أنه كان يمشى بنفس البساطة التي كان يبدو بها في مظاهره الرسمية ؛ وقد رأينا كيف اضطلع الحاكم بأعباء الحكم صبياً دون السادسة عشرة ، وكيف أن انهماكه بالشئون العامة منذ حداثة لم يترك له فرصة للانفاس في مجالى اللهو والعبث التي يفرق فيها من كان في سنه وفي ظروفه ؛ وقد كان الحاكم يحمله بلا ريب نزعة صوفية فلسفية ؛ ذلك أنه كان يرى في النقشف مثله ، ويحتقر متاع هذه الحياة الدنيئة ؛ ويرتفع عن مفاسد هذا المجتمع وعن غرائزه وشهواته النفسية الرضية . ولم يقل لنا أحد ممن كتبوا عن الحاكم ، معاصرين أو متأخرين إنه كان يتصف بشيء من الرذائل الاجتماعية ، بل تدل أقوالهم جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف ، كان تقياً في حياته الخاصة ، بعيداً من هذا الترف الناعم الذي يفت في الأجسام والأرواح القوية ، متقشفاً في مأكله وملبسه ، حتى قيل إنه لبث أعواماً يرتدى الصوف ، وأنه امتنع عن دخول الحمام^(١) . والخلاصة أن هذه الشخصية العجيبة التي تقدم إلينا من نواحيها العامة في صور مثيرة مروعة ، تحملنا من نواحيها الخاصة على الإعجاب والاحترام بما تشف عنه من سمو ونقاء واحتقار للشهوات الانسانية

محمد عبد الله عثمان
الحامى

للبحث بنية
(النقل من روح)

إلى جانب هذا الجود الشامل ، وهذا التمعف عن أموال الرعية ، كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى أجمع المؤرخون على الاشارة بها ، تلك هي زهده وتقشفه في مظاهره العامة وفي حياته الخاصة ، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة التي كان يحيطه بها ملك قوى وخلافة باذخة . وكان لأول حكمه قد أمر بمنع الناس كافة من مخاطبة أحد أو مكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده ؛ ثم عاد فأصدر أوامره ، بالأقبال أحده الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه ، إذ لا يجوز الانحناء إلى الأرض لمخلوق ، وإنما هي بدعة من صنيع الروم لا يجعل أن يميزها أمير المؤمنين ؛ ويكتفى في السلام الخلاق أن يقال : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ، كذلك يجب ألا يصل على أحد في مكاتبته ولا مخاطبته ، بل يقتصر في ذلك على « سلام الله وتحياته ونواى بركاته على أمير المؤمنين » ويدعى له بما تيسر من الدعاء فقط ، وقد كانت الصلاة على أمير المؤمنين من أخص رسوم الخلافة الفاطمية ، وكانت الامامة عنوانها ، وكان يصل على الخليفة كما يصل على النبي في الخطبة ، وفي المكاتبات والمحادثات الرسمية . ولكن الحاكم أبطل هذه الرسوم ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : « اللهم صلى على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين ، آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك . . . الخ » ، ومنع الحاكم أيضاً ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، فصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق . وركب الحاكم يوم عيد الفطر (٤٠٣ هـ) إلى المصلى بلا زينة ولا جنائب ولا موكب نفخ ، واكتفى بأفراس عليها سرج ولحم محلاة بفضة خفيفة ، وبنود ساذجة ، ومظلة خلافية بيضاء بلا ذهب ، يرتدى البياض بلا حلية ولا ذهب ، وعمامة دون جواهر ، ولم يفرش المنبر ، ولم تتخذ بالمسجد أهبات غير عادية ، وركب إلى الصلاة في عيد الأنحى على هذا النوال البسيط^(١)